[١٤٧ – عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: (كان النبي ﷺ يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة: ﴿ الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ﴾ السجدة و ﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ ﴾)].

في هذا الحديث بيانٌ لهدي النبي ﷺ صبيحة يوم الجمعة وأنه كان يقرأ في فجر يوم الجمعة بسورتي السجدة والإنسان، فنظرًا لاشتمال الحديث على هذه السنة النبوية اعتنى المصنف – رحمه الله – بإيراده في باب الجمعة. وكون النبي ﷺ يكثر من قراءة هاتين السورتين في صبيحة الجمعة يدل على سنية قراءتهما، وقد اختلف العلماء في مسألة المحافظة على هاتين السورتين: فذهب جمهور العلماء إلى سنية المحافظة ولكن ينبغي للمسلم ألا يحافظ محافظةً تامةً بحيث لا يصلي إلا بها؛ لأن هناك فرقٌ بين قوله: "كان لا يصلي إلا بكذا" وبين قوله: "كان يصلي بكذا"، فإن قوله: "كان لا يصلي إلا بكذا" يقتضي التخصيص للسورة، ولكن "كان يصلي" تقتضي الكثرة وقد تقتضي المداومة إذا دلت القرائن. وذهب الإمام مالكٌ – رحمه الله – إلى كراهية المداومة على هاتين السورتين وكثرة قراءتهما في صبيحة الجمعة، واختلف في سبب ذلك فقيل: لأنه أصلٌ عنده في مسألة الفرض: ألا تقرأ السجدة، وقيل: لأن الناس إذا اعتادوا قراءة هاتين السورتين في صبيحة الجمعة ظنوا وجوبهما وأن الصلاة لا تصح إلا بقراءة هاتين السورتين، فهو لا يخالف في أصل السنية، ولكنه يسد الذريعة في اعتقاد أن هاتين السورتين لازمةٌ. والواقع: أنهما يستحب قراءتهما، والذي يظهر: أن السنة دالةٌ على كثرة قراءته – عليه الصلاة والسلام – لهاتين السورتين، وقد جاء صريحًا في الرواية الأخرى: (ويداوم على ذلك) فدل على أن السنة: الإكثار من قراءة هاتين السورتين، وكون الجهال والعوام يعتقدون شيئًا، لا يمنع من المواظبة على سنة النبي ﷺ والمحافظة عليها، وخطأ الناس لا يوجب الحرمان من السنة وتركها. وعلى ذلك: فالسنة: أن يحافظ على هاتين السورتين الكريمتين صبيحة الجمعة، ولكن هناك أحوالٌ ينبغي التنبيه عليها، منها: أنه إذا شق على الناس وكان في المأمومين الضعيف والكبير ونحوهم ممن يتضرر بطول القيام، وكان فيهم كثرةٌ في المصلين، فعلى الأئمة أن يخففوا في القراءة وأن يصيبوا السنة، وألا يثقلوا على الناس فينفروهم من السنة. فإن قراءة هاتين السورتين بتؤدةٍ وأناةٍ يطول على الناس ويزعجهم ويشوش عليهم، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ في

صلاة الفجر: (أنه كان يقرأ من الستين إلى المئة آيةً) كما في الصحيحين من حديث جابرٍ – رضي الله عنه –. وأنه دخل صبيحة ذات يومٍ فصلى بالناس، فسمع بكاء صبيٍّ فقرأ ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴾ ثم قال ﷺ: (إني سمعت بكاء صبيٍّ فأشفقت على أمه) قال العلماء: في هذا دليلٌ على أنه ينبغي أن تكون في الإمام رحمةٌ بالناس، فإن كان السواد الأعظم منهم والكثير منهم فيهم الشيخ الكبير والهرم والضعيف ومن يتضرر بطول القيام، فإنه يخفف عنهم. وقال بعض العلماء: يجمع بين الأمرين بالإسراع في القراءة والحدر مع إعطاء القراءة حقها وعدم التكلف بالتمطيط، ونحو ذلك مما يؤذي الناس ويجعل السورة أطول مما هي عليه.

وأما الأمر الثاني: فإنه ينبغي أن يتنبه لمسألةٍ مهمةٍ وهي: أن النصوص كلها دالةٌ على أن رسول الله ﷺ كان يصلي صلاة الفجر في الغلس، ففي الصحيحين من حديث أبي برزة أنه قال – رضي الله عنه –: (وكان النبي ﷺ ينفتل من صلاة الغداة حين يعرف الرجل منا جليسه). وفي الصحيحين من حديث جابرٍ – رضي الله عنهما – قال: (والصبح كان النبي ﷺ يصليها بغلسٍ) والغلس: اختلاط ظلمة الليل بضياء النهار. وفي الصحيحين أيضًا من حديث عائشة – رضي الله عنها –: (كان النساء من المؤمنات يصلين الفجر مع رسول الله ﷺ ثم يرجعن إلى بيوتهن ما يُعرفن من شدة الغلس). إذا ثبت هذا فمعناه: ألا يطول الفصل بين الأذان والإقامة؛ لأن الناس منهم المبكر، فإذا بكروا خاصةً في المساجد التي يبكر لها قبل الفجر بساعةٍ، فإذا أصبح هناك انتظارٌ يقارب الثلث ساعةٍ بين الأذان والإقامة، وكان قد أتى قبل الأذان بوقتٍ فإن هذا يشق عليه ويضر به، ولذلك يستحب ويفضل تأسيًا بالسنة – مادام أنه سيطيل – أن يعجل الإقامة، فيكون في هذا تخفيفٌ على الناس. فمنها: أن تتحقق السنة بالتغليس الذي داوم عليه النبي ﷺ ، ومنها: أن تتحقق السنة بقراءة هاتين السورتين، ومنها: أن يخفف على المبكرين إلى المسجد ولا يكون في ذلك ضررٌ عليهم.

في مداومة رسول الله ﷺ على هاتين السورتين الكريمتين دليلٌ على فضلهما وما اشتملتا عليه من المقاصد العظيمة والآيات الجليلة الكريمة، سورتان عظيمتان كريمتان. أما سورة السجدة: فاستفتحها الله – جل جلاله – بالدلالة على عظمته وكيف يصعد الأمر إليه ﴿ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ﴾ . الله – جل جلاله – جعل هذا الكتاب دالاً على عظمته وشاهدًا على وحدانيته وقدرته، فجعل فيه هذه الآيات العظيمة، فاستفتح السورة بالدلالة على عظمته ثم نبه

على ضعف الناس وفقرهم إليه، وأنه ما من نفسٍ إلا وهي ميتةٌ ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ فالله – جل جلاله – ساق هذه الآيات تقرع قلوب المؤمنين والمؤمنات، وتذكر بنهاية الدنيا بالوفاة والممات، ثم أخذ بمجامع القلوب إلى أحوال أهل السعادة وأهل الشقاء: فقومٌ في النعيم منعمون وقومٌ في الدركات يعذبون، فالمؤمن بين الخوف والرجاء اللذان هما جناح السلامة، يخاف ربه ويرجو رحمته، فإذا جمع بين الخوف والرجاء أحسن الله له العاقبة. ثم انتقلت الآيات إلى بيان أحوال الرسل: فذكرت أحوال بني إسرائيل مع موسى – عليه الصلاة والسلام –. ثم بين الله – تعالى – حال السعداء الذين يمسكون بالكتاب ويستقيمون على طريق الحق والصواب. ثم انتقلت الآية إلى دليلٍ عظيمٍ من دلائل وحدانية الله – جل جلاله – وهو: بعثه ونشره للخلق، فدلت خاتمة السورة على قدرته – سبحانه – وعظمته: أنه يسوق الماء إلى الأرض الجرز فيخرج منها الزروع المختلفة ألوانها؛ لأن الله شاء أن تخرج، يخرجها من أرضٍ يابسةٍ جامدةٍ ساكنةٍ، أرسل عليها الماء بقدرته وساقه مقدرًا محسوبًا لا تزيد القطرة ولا تنقص، قد علم الله لحظاتها – بل وثوانيها – وعلم مكانها ومستقرها وما يكون منها. فالذي يحيي هذه الأرض التي كانت جامدةً ساكنةً هامدةً، فتخرج هذه الزروع النضرة فإذا بها حيةٌ تنبت من كل زوجٍ بهيجٍ، قادرٌ على خلق الخلق، قادرٌ على إيجادهم وبعثهم بعد موتهم، ولذلك كان المشركون يكذبون في هذه الحقيقة ويقولون: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ وكانوا يقولون: ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ ﴾ فالله ساق هذا الدليل العظيم. فإذا كانت العظام النخرة قد أصبحت يابسةً فإن الله قادرٌ على أن يعيدها رطبةً بالحياة، كما أن الأرض الجامدة الهامدة اليابسة أعادها الله حيةً وأنبت فيها من كل زوجٍ بهيجٍ، إذا أمر الله بقوله: "كن" فيكون ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ . ثم ختمت السورة بالترهيب والوعيد: حيث توعد الله – عز وجل – من كفر وأعرض عن دينه وشرعه أن له لقاءً موعودًا ويومًا مشهودًا.

وأما سورة ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ ﴾ فذكرت العبد بمبدئه وأنه لم يكن شيئًا مذكورًا، فسبحان من خلقه وصوره وشق سمع وبصره، وتبارك الله أحسن الخالقين ﴿ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ فمن الذي خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته؟ – سبحانه وتعالى – ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ

﴿ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ﴾ فذكر الإنسان ماذا كان. ولذلك ما من عاقلٍ حكيمٍ يسمع هذه الآية تتلى عليه إلا عرف قدر نفسه، وعرف مقامه عند ربه الذي خلقه فسواه، ولذلك لما مر أحد المتعاظمين على مطرفٍ بن عبد الله – وقد اختال في مشيته – قال له: يا هذا اتق الله. فقال لأبي عبد الله قال له: أولا تعرفني؟ قال: بلى، والله إني لأعرف الناس بك، أنت الذي أولك نطفةٌ قذرةٌ وآخرك جيفةٌ مدرةٌ وأنت بينهما تحمل العذرة. فالعبد إذا عرف حقيقته، ومن هو، ومن الذي خلقه وأوجده، انكسر لربه – سبحانه وتعالى –، وذل لله – جل جلاله – الذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره، ولذلك كان ﷺ يقول في سجوده في التلاوة: (سجد وجهي للذي خلقه وصوره، وشق سمعه وبصره، وتبارك الله أحسن الخالقين).

ثم انتقلت السورة العظيمة إلى بيان هداية الله للخلق ﴿ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ فإما سعيدٌ بتوفيق الله ورحمته وفضله، وإما شقيٌّ بمحض عدله. ثم انتقلت الآية الكريمة إلى رجفة قلوب المؤمنين من رب العالمين، وخوفهم من اللقاء المشهود واليوم الموعود، وأنهم لما تذكروا الآخرة هانت عليهم الدنيا فبذلوها، فأطعموا الطعام وأحسنوا بخصال الكرام، كل ذلك لا للدنيا ولا للرياء ولا للسمعة ﴿ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا ١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ﴾ فما أفرح المؤمن وهو يسمع هذه الآيات الكريمة! تقرع سمعه، وتخشع قلبه، وتُبكي من خشية الله عينيه.

ثم تنتقل الآية الكريمة إلى أحوال السعداء وهم في ثيابهم يرفلون، والله – عز وجل – قد أنعم عليهم على سررٍ متقابلين ﴿ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرٖ ٥٥ ﴾ .